

## عمو صالح

محمود سعيد ❖

أربعة، يسيرون ملتَمِّين، يحملون حقائبهم الصغيرة على ظهورهم كطلّاب المدارس، باستثناء كبيرتهم التي لم تتجاوز الثانية عشرة بأَيِّ حال: فهي تُسحب حقيبتها ذات العجلات على الأرض. يمشون قليلاً، ثم يستريحون. توقفوا منبهرين بالمحطة الضخمة، بالرغم من الضوء الشّاحب. توقفوا، تلمع عيونهم أمام عربة مكدّسة بمئات الهدايا: أوراق لعب، بالونات، مفاتيح سيارة بعشرات الموديلات، عرائس ولعب، تماثيل صغيرة. انظري: ديناصور، غوريلا، كلب. ما أجمل هذه السيّارة، غانننن. وحينما استحثّتهم أختهم الكبيرة: «ياللا.. قبل أن يفوتنا القطار،» هُرعوا وهم يتلفنون. يجذبون ثوبها للفت انتباهها:

- سناء، أوجد مثل هذا في الموصل؟

ابتسمت: الأطفال هم الأطفال في كل مكان وزمان. لم أسمع جواب سناء. كانت تحتُ السَّيرَ نحو القطار تحت الأضواء الصّفر الشّاحبة، وهي تشدُّ على يد أختها الصّغيرة التي لم تكن تتجاوز الثالثة. لم يترُّ في ذهني أيُّ سؤال عمّن سيرافقهم إلى الموصل. ثم لحظتُ امرأة تسير وبيدًا خلفهم. أسير أنا أيضاً ببطء. توقفتُ. ربما هذه أول مرة أركب القطار إلى الموصل منذ أربعين سنة. تفحصتُ أرقام العربات القديمة، الصّدنة، التي رُفعت أرقامها المعدنية المتساقطة بصبغ أبيض غير دقيق. سعدتُ. تغيّر كل شيء عمّا كان عليه قبل أربعين سنة: المقاعد آنذاك خشبية، وهذه جلدية؛ وهي أروّح بالرَّغم من تهرّبها. صخبٌ بضعة عشر شاباً يملأ فراغ العربة. بدوا من قمصانهم، المميّزة بالألوان الثلاثة، الأبيض والأحمر والأسود، فريقاً رياضياً. الأطفال أنفسهم يحتلون المقعدين إلى اليمين، سناء والطفلة الصغيرة، وأمامها طفلة أخرى في الخامسة، وطفل في العاشرة يجلس جانب المر، صدّف أنّ كان مقعدي قريبه يفصلنا المرُّ فقط إلى يميني، بينما يتدثر عجوزٌ إلى يساري بمعطف عسكري قديم، يلفّ وجهه ببشماغ أسود متهرى، لا أدري أكان نائماً أم يستعدُّ لينام.

بدا الأطفال الثلاثة سعداء بهذه التّجربة الفريدة - ركوب القطار لأول مرة - ينظرون من النّوافذ إلى أرصفة المحطة القذرة، عبر الفضاء، الجهة الأخرى. يعدكون جلستهم. يثيرهم أيُّ شيء. يضحكون بقوة، بسعادة، لأيّ كلمة يلقيها أحدهم. أما سناء فقد استلّتها تفكيرٌ عميقٌ بشيء ما.

تذكرتُ المرأة. ترى أين جلست؟ لم أرها. أيمكن أن تكون غريبة عنهم؟ ربما. التفتتُ إلى اليمين حيث باب العربة. رأيته واقفةً، تنظر إليّ، وتستدعيني بحركة سبّابتها، يختلط في عينيها حزنٌ ورجاءٌ عميقان. كرّرت الحركة غير مرة. كدتُ أهتف متسائلاً: «أنا؟!» لكنّها وضعت السبّابة نفسها على فمها، أن أسكت. نهضتُ. اقتربتُ منها. في خمسيناتها، نحيفة، بقايا جمال أهملته مصائبٌ لا حصر لها. عباءة مقحلة، ثوبٌ مُحكم من البازة البيضاء المنقطة، جديلتان شهبواوان تسدلان على صدر ممتلئ. ما إن اقتربتُ منها حتى نزلت درجات القطار بحذر. ثم التفتتُ إليّ. نزلت وراءها. غامت عيناها:

- يبدو أنك إنسان طيّب.

أمسكتُ كفيّ. ابتسمتُ باهتمام. همستُ:

- لي خدمة بسيطة، أرجو أن تقوم بها، الله يوفّقك، الله يخلّيك!

- ما هي؟

- قبل كل شيء، عِدني أن تقوم بها.

- قبل أن أعرف؟

❖ كاتب عراقي.

- إنها بسيطة: أن تبقى مع الأطفال حينما يقف القطارُ في الموصل حتى يصل عمُّهم.

- بسيطة.

- أتفعلها؟

- نعم.

أخرجتُ مصحفًا صغيرًا من جيب ثوبها «البازة» البيضاء المنقطة بالأسود: أفسِّم!

ابتسمتُ: لا حاجة للقسَم. أفعَل!

- بل أفسِّم!

سحبتُ كَفِّي لتقبُّلها.

- لا داعي لكل هذا.

- أفسِّم!

أقسمتُ.

- لن تتركهم حتى يتسلَّمهم عمُّهم صالح.

- أفعَل.

ابتسمتُ:

- تبدو طيبًا. توقعتُ ذلك.

أضافتُ:

- ماتت أمُّهم في ولادة هناء، قبل ثلاث سنوات. حصار، لا يوجد مُعقِّم. أصيب أبوهـم بالسَّرطان في السنَّة نفسها، من القهر، أو من اليورانيوم المنضَّب؛ لا أحد يدري. مهندس في قاعدة التاجي. تعرفها أنت؟ دُمَّرتُ في حرب الكويت. مات قبل ثلاثة أشهر. سامحهم صاحبُ البيت من الإيجار ستة أشهر. بعنا كلَّ ما لديهم. لم يبقَ لهم شيء في بغداد.

- أتعرفين عمُّهم؟

- لا، لكنَّه سيأتي لاستقبالهم في المحطة.

- أنت متأكِّدة أنه سيأتي؟

فتحتُ ذراعَيْها بعباءتها المقحلة على وسعهما:

- كيف لا؟ اتصلتُ به ثلاث مرات. الاتصالات وحدها كلَّتنتي عشرة آلاف دينار. طلعتُ روحي حتى وجدتُ رقمه. ثلاثة أشهر، وأنا أبحث عنه. أخيرًا وقَّنا الله.

ثم لَوَّت رقبتهـا باستعطاف والدموعُ تملأ عينيها:

- أنت تعرف المصائب الآن: خطف الأطفال، التفجيرات، القتل. تُسلَّمهم بيد عمهم صالح.



جذبتهم حركة القطار نحو النوافذ، لكنها خيبت أملهم بعد قليل، إذ لا شيء يستحق النظر: أضواء الكاظمية تأتي خافتة من بعيد، رؤوس النخيل سوداء في الليل كالدبابيس. وسرعان ما انقطع ضوء أعمدة الكهرباء بانتهاء ضواحي بغداد، فابتعد الأطفال عن الشبّابيك، وأثرت حركة القطار الرتيبية في الأطفال حتى كادوا يُغفون في مكانهم لولا أن فاحت في الجو رائحة الطعام: كباب مشوي، مقلي، شاورما، بيض، عنبية. أخرج شبّاب الفريق الرياضي ساندويشاتهم، وأخذوا يقضمونها مع النكات، والقهقهات، والتعليقات، وتبادل أنخاب البيبسي والسقن أب.

التفت الطفلان نحو سناء. همّسا ببضع كلمات، بينما كانت الصغيرة الجالسة قريبا تنظر إليها بتصرّع. نهضت، تناولت حقيبتها من الحافظ الشبكي في الأعلى، أنزلتها، وعيون الثلاثة معلقة بحركة يديها. ثم أخرجت كأساً صغيرة، ومنشفة صغيرة فتحتها عن أربعة أقسام متساوية، لقرص خبز كانت أعدته لملء هذه اللحظة.ناولت قطعة خبز لكل منهم، ولفّت قطعها. أرجعت الحقيبة إلى مكانها، ثم نهضت إلى المغاسل القريبة، وملأت الكأس بالماء. ثم جاءت، فأخذ الأطفال يأدمون الخبز والماء.

قال الطفل: غداً سنأكل في بيت عمّ صالح.

ردت الوسطى وهي ترى الفريق الرياضي يشرب المرطبات: وسنشرب البيبسي.

- السقن أب.

- عصير البرتقال.

- سنلعب مع ابنته.

ثم التفت إلى سناء، وسأل: ما اسمها؟

- لا أدري.

تدخل الطفل:

- لنسمها: «لا أدري»!

ضحك الجميع.

- كم عمرها؟

- لا أدري.

تدخل:

- ليكن عمرها «لا أدري».

ضحكوا مرة أخرى. أضافت الوسطى:

- إنها تتعلم في مدرسة «لا أدري».

أحسست بالسعادة، وأنا أراقبهم من حيث لا يشعرون يضحكون بسعادة وبراءة.

- تسمعون كلام عمّ صالح.

رددوا جميعاً، وكأنهم سمعوا هذه الجملة عشرات المرات: نعم. كلام زوجته. نعم. لا تعاكسوا ابنته، كما كنتم تفعلون مع زينة ابنة الست كوثر. لا!!!!!! ثم اندمجوا جميعاً في قهقهة طويلة.

فيهم جميعاً أشياء موحّدة: شعر كستنائي فاتح، بياضٌ نقي، أعينٌ شهلٍ واسعة، يبدو خطُّ الرِّقَّة فيها ضعيفاً يميل نحو الاخضرار. شفاهُ رفيعة مزمومة. بدأتُ أقرأ في المجلة التي كانت معي. الطفلُ أقربُهم إليّ. التفتتُ نحوي: «كان أبي يقرأ المجلة نفسها: العلم المعاصر». ابتسمتُ: «وانت؟ ألم تحاول أن تقرأها؟» «صعبة، مازلتُ في الصفِّ الرابع فقط. أنظرُ إلى الصُّور فقط.» قطع حوارنا صوتُ أخته:

- ضياء، لا تزعج الرجلَ بأسئلتك.

- لا، لم يزعجني.

نهضتُ سناء، ويدها بيد الصَّغرى، نحو المرافق القريبة. وعندما جاءتْ هزّتْ الوسطى، التي كان النعاسُ يراودها، من كتفها برفقٍ وهي تهمس: «رجاء. هيا. تعالي معي إلى المرافق، قبل أن تنامي.»

بعد ذلك جاء دور ضياء:

- أنت أيضاً، تعال.

- أنا صغير؟ رجل، أذهب متى أشاء.

أصرتُ: «تعال.» قلتُ له: «أذهب.»

سألني بعد مجيئه: «هل زرتِ الموصل؟»

ضحكتُ: «قبل أربعين سنة.» فهقه مستغرياً، كأنه لا يصدّق أن يعيش المرءُ مثلَ تلك المدة: «أربعين سنة؟» «نعم.» «لا بدُ أنك نسيت كل شيء!» «لا أعرف. ربما تغيّر كل شيء. ربما بقي شيء ما. غداً أعرف.» «أكان يوجد فيها ملاعب كرة قدم مثل بغداد؟» ابتسمتُ: «لا، كنا نلعب في الخلاء.» «والآن؟ لا بدُ أن يوجد! في المدارس على الأقل! أنا أحسنُ لاعب كرة قدم في الصفِّ. مهاجم درجة أولى. ساكون في المستقبل من ضمن الفريق العراقي.» ابتسمتُ: «لا شك في ذلك.» التفتتُ إليّ بجدّ: «كيف تؤكّد ذلك؟ أرايتني ألعب؟» هزرتُ رأسي: «لا، لكنّ الإنسان يصلُ إلى ما يريده إنْ أُصرَّ.» قال بما يشبه الهمس: «أبي كان يقول ذلك.» ثم التفتتُ إليّ، وقال باهتمام: «لم أكن أريد أن أترك بغداد، أصدقائي كثيرون، لكنّ أين نبقي؟ ليس عندنا فلوسُ الإيجار.» «منْ هي تلك المرأة، أمّ العباءة، التي ودّعتكم في المحطة؟» «ست كوثر جارتنا. معلمة متقاعدة. زوجها معلّم متقاعد أيضاً.» «أهي قريبة؟» «لا، ليس عندنا أقرباء غير عمي صالح، لكننا لم نره. أ يوجد في الموصل تفجيرات مثل بغداد؟» صفعني السؤال. «نعم.. كما في العراق كلّهُ.» لم يقل شيئاً. عتمتُ عيناه بقسوة. تتأب. بدأ يقاوم النعاس. ثم أغفى. أعدائي تتأوؤبه. وبين اليقظة والمنام رأيتُ سناء تنهض تنفقُ إخوتها واحداً واحداً، تغطّيهم، تعدلُ من أوضاعهم وهم نائمون، قبل أن تُغمض عينيها.



- حمار!

لستُ أدري منْ صرخ بالكلمة، لكنّي سمعتُ فهقه الفريق الرياضي، وضحك الأطفال، قبل أن أسمع نهيقَ الحمار. فتحتُ عينيّ. الأطفال مستبقظون، يتجمعون على الشبّاك. حمار ينهق يختفي. بيوت طينية تختفي. نلال قحلاء تتوالى. يلمع بين الحين والحين على الجانبين مرمرٌ أبيض ناصعٌ. سمعتُ كلمتي «حمام العليل»، ثم دخل بعد قليل القطارُ في نفق. انطقات الأضواء وساد الظلام. صرخت الصَّغيرة. هتفتُ سناء بصوت مضطرب: «لا تخافي، حبيبتي.» ربما كانت هي خائفة أيضاً. قلتُ مطمئناً: «لا تخافوا. إنْ هي إلا بضع دقائق فقط. إننا ندخل النفق.» «ما النفق؟» ميّزتُ صوتَ ضياء. أجاب صوتُ رجوليّ من الأمام، ربما من أحد أعضاء الفريق الرياضي: «هه.. هه.

طريق تحت الجبل. «أكملت: «سنصل الموصل خلال عشر دقائق.» ساد الصمت. فجأة خرج القطار من النفق. غمر الضوء الرقيق العربة. لاحت من بعيد بيوت مترابطة من طابق واحد. أعمدة كهرباء. غبار في غير مكان. ملأت الفرحة تقاطيع الصغار: «وصلنا الموصل، سيأتي عمو صالح.» سألت رجاء: «سيأتي عمو صالح لاستقبالنا مع ابنته وزوجته، أم وحده؟ لا أدري.» قال ضياء: لن تأتي 'لا أدري' معه، إنها في المدرسة.» ضحكوا بسعادة فائقة مرة أخرى، ثم انطلقوا يعلقون، ويقهقهون حتى توقف القطار في حدود الساعة صباحاً.

تزاحم الفريق الرياضي قبل الجميع على فتحة الباب، بينما كانت سناء قد لمت إختوتها أمامها، نشرت ساعديها، تحيطهم، لتمنعهم من النزول. احترمت رغبتها، أسرع نازلاً. وقفت في مدخل المحطة أقربهم من بعيد. بوابة المحطة هي المنفذ الرئيس إلى المدينة. عندما كنت صغيراً، وقبل أن يبعد طريق السيارات بين الموصل وبغداد، كان القطار هو الوسيلة الأولى والأخيرة للسفر. آنذاك كانت المحطة تتألق مزهوة - رغم صغرها - بجدران المرمر البراقة؛ لكنّها بدت الآن قذرة، مهملة، شبه مهدامة، تصدم العين.

قرصني برد الموصل حين نزولي، فخرجت من المحطة لأتمتع بحرارة الشمس الخفيفة. لكن لم يكن بمقدور الأطفال أن يخرجوا؛ كانوا يقاومون البرد بوقوفهم متراسين وحدة واحدة، بيد كل واحد منهم ورقة، يرفعها إلى الأعلى. لست أدري متى أخرجت سناء تلك الأوراق، كل ورقة فيه كلمة واحدة فقط: «صالح.»

لم يدخل البوابة أي مستقيل. جاء رجل في الخمسين، «زبون» تقليدي مع حزام عريض، كنت أظنه اختفى، مع يشماغ أسود وعقال حريري يلعب. ظل واقفاً خارج الباب في الشمس. ابتسم عندما شاهد شابة محجبة حاملاً، تسير مع عجوز تجنح في مشيتها نحو اليمين. ثم جاء عسكري ضخم متجه الملامح وبرفته مراهقة محجبة تبدو ابنته، وقفا خارج المحطة أيضاً، واستقبلا امرأة وشابين، في عناق وقبل. بعد دقائق خلت المحطة إلا مناً. بدت شديدة الكآبة، أرضية المرمر فيها منقوشة بحفر مليئة بوجول جافة. ثمة مسطبة خشبية يتيمه لم يبق من مسندها سوى لوح وحيد بعرض سنتيمترين. جلس الأطفال على المسطبة: الصغيرة هناء في حضن سناء، ورجاء إلى اليمين. ظل ضياء واقفاً. أعينهم على الباب المفتوح، وبأيديهم أوراق «صالح» غير مرفوعة.

كان البرد قارساً بالرغم من الشمس المشرقة. توجهت نحو المدفأة الكهربائية. مددت يدي؛ المدفأة باردة. كانت قبل أربعين سنة تكوي اليد. كل شيء إلى خراب: تلك سنة الحياة عندنا. فجأة انتصب رجل أعرج، في يده مكنسة خوص مثبتة إلى عصا طويلة، وأخذ يكس أرضية الصالة المليئة بالحفر. بدا كقروي لم تستطع المدينة اجتثاث جذوره. نبر بعربية مكسرة، وبفظاظة:

- اخرجوا! لا مستقبليين بعد الآن. اخرجوا!

أظلمت أعين الأطفال. تحركت عندهم غريزة الدفاع عن النفس. التحموا واحدهم بالآخر، لكنهم لم يتفوهوا بأية كلمة. انتقلت نظراتهم بين سناء والأعرج. كنت خارج الباب. أخرجت سيجارة أجنبية، تقدمت منه. قلت بما يشبه الهمس كي لا يسمعوا حديثنا:

- تفضل. لن يضايقك بقاؤهم هنا بعض الوقت. هه. أليس كذلك؟

أسند عصا المكنسة إلى صدره:

- سيأتي المفتش بعد قليل.

- لكل شيء حينه.

- أهما معك؟

- نعم.

أشعلت السيجارة له. امتص دخانها بعمق. أغمض عينيه، ثم فتحهما. نظر إلى السيجارة برضى. انسحب في ممر جانبي واختفى.



مضت نصف ساعة تقريباً. بكت الصغيرة: «متى يأتي عمو صالح؟ إنني جائعة.»

- لا تبكي، حبيبتي.

فتحت سناء الحقيبة. أخرجت كسرة الخبز. جمعت الثلاثة حولها، وأعينهم على الخبزة الصغيرة. قسمنها بينهم. هتف ضياء:

- وأنت؟

- ساكل في بيت عمو صالح.

- ماذا سنأكل؟

- لا أدري.

- قيمر.. وعسل.

- لا أدري.

ضحك ضياء: «سناكل وتأكل معنا لا أدري!»

فجأة لاح الأعرج، كأن الأرض انشقت ولفظته. صرخ بكل قوة:

- أما زلتم هنا؟ اخرجوا.. دعوني أنظف.

كنت في الخارج أيضاً. دخلت. ابتسمت. أخرجت علبة الدخان. ناولته سيجارة أخرى. أشعلتها له قبل أن يفتح فمه، ثم دسست بضع ورقات نقد في يده من دون أن يراني الأطفال. اختفى من جديد.

- تسمعون كلام..

أكملوا: «... عمو صالح!»

ظلمت واقفاً، ظهري إلى الأطفال. طفقت أدخن.

نهضت. حملت الصغيرة على كتفها. دخلت غرفة الحمام. غسلت وجهها، نشفتها. بدت الصغيرة فائقة الجمال. ثم توجهت نحو رجا: «تعالى.» «ليس الآن.» «بل الآن، قبل أن يأتي عمو صالح. لم تغسلي وجهك بعد نوم القطار.» أمسكت يدها، سحبتها، وما إن خرجت حتى توجه ضياء نحو الحمام من دون أن تناديه، قال: «لا حاجة لمرافقتي.» انتظرت له لكي يخرج، ثم أخذت تصف شعره المبلل بمشط صغير، وهو يتأفف.

تجاوزت الساعة التاسعة. بدأ الأطفال يلعبون. أمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً وأخذوا يدورون ويغنون: «يا أرضنا الحلوة..»

نهضت سناء، دخلت الحمام. أحسوا باختفائها. توقفوا عن اللعب. خرجت وعيناها محتقنتان بالدموع، وأثار ضبطها لنفسها تمرق تقاطيعها الجميلة. تجمعوا نحوها. سألتها رجا: «أسيأتي عمو صالح؟» لم تجب. تجاوزت الساعة العاشرة والنصف. كانت تنظر نحو باب المحطة، وهم ينظرون معها. دخلت الحمام، وضمنت أنها كانت تبكي هناك ثم ترجع. هتف ضياء: «هيا نلعب.» بكت الصغيرة: «إنني جائعة.» نهضت سناء، وقالت بصوت عال: «سنلعب جميعاً، أنا معكم. كوتوا حلقة كبيرة.» أخذوا يدورون حول أنفسهم، وبأيديهم أوراق عمو صالح: «يا أرضنا الطيبة.» ابتسمت. خرجت. التفت. عادت الغيوم تفتك بعيني سناء؛ لم تستطع أن تكمل. انسحبت إلى المقعد. وضعت كفيها الصغيرتين على وجهها. انفجرت في بكاء مرطويل، فهرع الجميع نحوها وأوراق «صالح» تتساقط من أيديهم على الأرض. عانقوها وهم ييكون.

الولايات المتحدة